

## قراءة في كتاب "الموقف من الموت في المغرب والأندلس في العصر الوسيط" لمحمد حقي

يعد موضوع الموت من المواضيع الشائكة، تتقاطع عدة تخصصات من أدب، وفن، وفلسفة، وأنثروبولوجيا، وعلم النفس، وعلم اجتماع ديني، إضافة إلى علم الأحياء (البيولوجيا)... ولم تبق الدراسات التاريخية، خاصة التي ارتبطت بمدارس قطعت أشواطاً مهمة في تجديد مناهج البحث التاريخي، بمنأى عن سبر أغوار موضوع الموت، حيث استفاد «الأوروبيون من تنوع إمكاناتهم المصدرية ليغامروا في البحث في [ظاهرة الموت]. فتوفر سجلات الكنائس ووثائق الحالة المدنية وغيرها، مكنت المؤرخين في أوروبا من دراسة أثر الموت في تزايد عدد السكان، (...) وفي تطور العقليات (...) خصوصاً أن احتكاكهم بعلماء الاجتماع، وتطور علم الأنثروبولوجيا واكتساحه لأطراف مجال علم التاريخ، واستقراره على هوامش الحقل التاريخي، قد أدكى في مؤرخي أوروبا تلك الرغبة في المشاركة في البحث في قضايا مثل قضية الموت»<sup>1</sup>. وهكذا صدرت العديد من الدراسات التاريخية الأوربية ذات الصلة بالموضوع<sup>2</sup>.

لقد كانت هذه الدراسات وغيرها من ضمن مبررات اختيار الباحث محمد حقي لموضوع كتابه، ومكنته من فهم الكثير من القضايا المنهجية والمعرفية التي يطرحها موضوع الموت<sup>3</sup>.

وإذا كانت الأبحاث التاريخية الغربية قطعت شوطاً مهماً في دراستها للموت، فإن نظيرتها المغربية ما زالت في مرحلة جنينية. وهنا تكمن إحدى صعوبات البحث التي أقر بها الباحث<sup>4</sup>.

<sup>1</sup> - محمد مزين، "الموت في المغرب القرن العاشر من خلال كتاب "الجواهر" للزياتي"، ضمن التاريخ وأدب النوازل، دراسات تاريخية مهداة للفقيد محمد زبيير، الجمعية المغربية للبحث التاريخي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1995 م، ص. 103-104.

<sup>2</sup> - نذكر من هذه الدراسات على سبيل المثال لا الحصر، تبعاً لترتيبها الكرونولوجي :

François. LEBRUN, *Les hommes et la mort en Anjou aux XVII<sup>e</sup> et XVIII<sup>e</sup> siècles*, Paris-La Haye, 1971.

Michel. VOVELLE (présentation), *Mourir autrefois, Attitudes collectives devant la mort aux XVII<sup>e</sup> et XVIII<sup>e</sup> siècles*, éd. Gallimard Julliard, Paris, 1974.

Philippe. ARIES, *L'homme devant la mort*, (2 T), éd. du Seuil, Paris, 1985-1987.

<sup>3</sup> - محمد حقي، *الموقف من الموت في المغرب والأندلس في العصر الوسيط*، مطبعة مانيال، بني ملال، 2007، ص. 3.

<sup>4</sup> - نفسه، ص. 3.

لم تكن ندرة الأبحاث التاريخية المغربية حول موضوع الموت الصعوبة الوحيدة التي جابهت الباحث، فثمة صعوبات أخرى مرتبطة بكيفية حضوره كموضوع في المصادر المغربية والأندلسية على اختلاف أجناسها. فقد لاحظ الباحث، وهو بصدد تصفح هذه المصادر، أن موضوع الموت لا يحضر فيها كموضوع قائم الذات إلا بصفة نادرة. وإن أكد على أهمية كتب التراجم والمناقب والنوازل والحسبة وأهميتها بالنسبة للموضوع، ميديا في الآن نفسه وعيا جيدا بطبيعة هذه الأجناس، وكيفية استغلال المؤرخ لها، وهذا من بين حسنات هذا البحث العديدة. ولم يقتصر الباحث على المصادر المكتوبة، بل استعان ببعض الأبحاث في علم الآثار، وأضاف إليها زيارات ميدانية لبعض المقابر المغربية، وحاول تلمس المنهج الأنثروبولوجي بتتبع بعض تقاليد الموت الراهنة، وتتبع المواكب الجنائزية، وراقب ما يحدث فيها<sup>5</sup>.

ارتباطا بمصادر البحث، لا بد أن يلاحظ المطلع المتخصص أن توسعة المجال وتمديد الزمان المبحوث فيهما، فوت على الباحث، رغم المجهود المضني الكبير، الاطلاع على مجموعة منها، كان من شأنها أن تضيف معلومات أخرى للموضوع، وتصورات جديدة<sup>6</sup>. وعليه، لا يمكن مجازاة الباحث في القول بأنه لم يهمل «أية إشارة مهما كانت تافهة وصغيرة»<sup>7</sup>. وهذه ملاحظة نابعة من تجارب خاصة مرتبطة بالموضوع أولاها تناولت فيها موت الولي انطلاقا من كتب المناقب<sup>8</sup>، وثانيتها كشفت فيها عن طبيعة كتب البدع في مغرب أواخر العصر الوسيط<sup>9</sup>، وثالثتها مرتبطة بالطروحة التي أعدتها، وتطرق فيها لما يمكن تسميته بالموت الجماعي الناجم عن الكوارث الطبيعية من مجاعات وأوبئة وسيول وغيرها والتي نقف عندها، أحيانا، على أرقام ضحايا هذه الكوارث<sup>10</sup>.

قبل الانتقال إلى التأطير المنهجي لموضوع الكتاب موضوع القراءة، لا بد من الإشارة إلى أن تناوله، من وجهة نظر تاريخية، تتقاطع عدة توجهات داخل مدرسة "الألن"؛ فالديموغرافيا التاريخية كانت سباقة لتناوله، غير أن تطبيق مناهجها على التاريخ المغربي والأندلسي، تعترضه عدة مشاكل، وفي مقدمتها ندرة شواهد القبور خلال الحقبة المعنية

<sup>5</sup>- نفسه، ص. 4-5.

<sup>6</sup>- يكفي أن نذكر منها بعض كتب المناقب وكتب البدع.

<sup>7</sup>- محمد حقي، الموقف من الموت، ص. 5-6.

م XII<sup>8</sup> محمد ياسر الهلالي، "موت الولي في كتب المناقب بالمغرب الأقصى خلال العصر الوسيط (من القرن السادس هـ/م)"، المناهل، مجلة فصلية تصدرها وزارة الثقافة المغربية، العدد 91-92، أبريل 2012 م. (ص. XV إلى القرن التاسع هـ/م). (393-427).

<sup>9</sup>- محمد ياسر الهلالي، "قراءة في بعض «كتب البدع» بالمغرب الأقصى أواخر العصر الوسيط"، ضمن أعمال ندوة البدع والملل والنحل في تاريخ المغرب، بتاريخ 10-11 دجنبر 1999 م، تنظيم مجموعة البحث حول التاريخ الديني، التابعة لجامعة الحسن الثاني، كلية الآداب والعلوم الإنسانية - عين الشق، الدار البيضاء، دفاقر البحث، الصادر عن الجامعة نفسها، المجلد الأول، العدد الأول، شوال 1422 هـ/ دجنبر 2001 م. (ص. 11-42).

<sup>10</sup>- محمد ياسر الهلالي، مجتمع المغرب الأقصى خلال القرنين الثامن والتاسع هـ/ XIV-XV م، مساهمة في دراسة بعض مفاهيم التراتب الاجتماعي («العلماء»-«الخاصة»/ «الطبقة»-«المرتبة»)، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، السنة الجامعية، 1999-2000 م، (م.رقونة)، ص. 422-434.

بالدراسة، وتركيز المصادر على أعداد الموتى إبان الحروب والأوبئة والمجاعات بشكل انطباعي أكثر منه إحصائي. وعالجت الأنثروبولوجية التاريخية دورها موضوع الموت. وانسجما مع منهجها، ركزت على الرمزي والثقافي. لذا، وجب التفريق عند دراسة تاريخ الموت بين الموت كحدث (أسباب الموت)، وبين الموت كفكرة وكرمز. كما أولى تاريخ الذهنيات أهمية بالغة لموضوع الموت ببحثه في أحاسيس وتصورات الناس من خلال صورهم، وأساطيرهم، وقيمهم. ومن خلال مقارنته، يمكن قياس درجة تطور الذهنية خاصة فيما يتعلق بالعادات والتقاليد الجنائزية من العصور الموعلة في القدم إلى وقتنا الحاضر. وانسجما مع هذا التوجه الأخير، صيغ كتاب "الموقف من الموت في المغرب والأندلس"، انطلاقاً من وعي صاحبه بأن تاريخ الذهنيات « يهتم بمعرفة المواقف الجماعية على فترة زمنية طويلة، والخوض في مجالات الصمت واستكناه خباياها »<sup>11</sup>.

تدور الإشكالية المحورية التي أطرت الكتاب موضوع القراءة حول بناء موت جماعي ديني عند المغاربة والأندلسيين خلال العصر الوسيط، وما يترتب عن هذا البناء من صور، واستعداد الأفراد والمجتمع لاستقبال الموت، والوصايا المرتبطة به، مروراً بالاحتضار، وتجهيز الميت بما يفيد الحلول التي اقترحوها لمواجهة فظاعة الجثة البشرية وهول فسادها، ثم الموكب الجنائزي، وتأبين الموتى من حداد ومأتم وعزاء ورتاء، وصولاً إلى الدفن والمقابر. وجمع في كل هذا بين مجالات التفكير في الموت والشعور به، والفعل فيه أو إزائه. محاولاً كشف الحجب التي تحيط بها تصورات المُجتمَعين ورموزها، وبحثاً عن انبثاق المشاعر من منظومة الحجب والرموز هذه. ونظر في سلوك الأحياء إزاء الميت وهو جثة تقتضي تطهيرها وسترها، ثم جنازة يجب الصلاة عليها ومواراتها تحت الأرض، ثم فقيد يجب مشاركة غيابه بالامتناع الجزئي عن الحياة، ثم قبر وذكرى. ونظر في الطقوس المصاحبة للموت كالنوح التي « يمسرحه »، وغير ذلك.

لا يمكن أن يكون الموت، في نظر الإنسان، مجرد حدث فيزيولوجي بما أنه كائن رموز، فلا بد أن تنتج المجموعة الثقافية تصورات وطقوساً، فتدخل هذا الحدث في نظامها العقائدي والميثي، وتحوّل الغياب الذي يترتب عنه حضوراً، وتهيئ كل فرد لقبول موته وموت الآخرين. ولا يدرك الفرد الموت سوى من خلال التمثلات الجماعية، ومن خلالها يقيم الإنسان وبيني فلسفاته ومعتقداته حول الموت<sup>12</sup>. بناء على هذا التصور، قسم الباحث موضوع كتابه إلى ثلاثة أقسام ضمت إثني عشر فصلاً ومقدمة وخاتمة للموضوع.

اتبع الباحث لمعالجة مواضيع مؤلفه منهجاً يعتمد أساساً على الوصف، مدعماً بنصوص أو بفحواها، وذيلها بخلاصات تنسجم مع المادة المصدرية المعتمد عليها مع تكرارها بين الحين والآخر. ولما كنا أمام موضوع بكر، فنادر ما ناقش المؤلف آراء الباحثين ذات الصلة

<sup>11</sup> - محمد حقي، الموقف من الموت، ص. 3.

<sup>12</sup> - رجاء بن سلامة، الموت وطقوسه من خلال صحيح البخاري ومسلم، دار رؤية، القاهرة، ط 2، 2009، ص. 46.

بالموضوع<sup>13</sup>. فباطلالة على هوامشه، يلاحظ بسهولة طغيان المادة المصدرية على المرجعية.

وإذا كان الباحث اختار تأطير موضوعه في تاريخ الذهنيات، كما سلف، فإنه اضطر نتيجة لذلك، ولشح المادة المصدرية المرتبطة بالموضوع، إلى تمديد الحيز الزمني ليشمل سبعة قرون تبتدأ بنهاية القرن الثاني إلى حدود القرن التاسع الهجريين، وفي الآن نفسه توسيع المجال المدروس ليشمل المغرب والأندلس، وهذا يحيلنا على قضيتين من القضايا التي سأعالجها في هذه القراءة وهما قضيتي المجال والتحقيب.

## قضية المجال

طالما أثرت بين بعض الباحثين الوسيطيين قضية الجمع بين المجالين ومن ثمة بين المجتمعين المغربي والأندلسي بين رافض لهذا الجمع وبين مقر له، ولا أخفي تموقعي مع الفريق الأول لأسباب عدة إيماناً مني بخصوصية كل واحد منهما، وأخذاً بعين الاعتبار للفروق البنيوية والوظيفية والثقافية بين المجتمعين عصرئذ.

صحيح أن المجتمعين معا خضعا في وقت من أوقات العصر الوسيط لسلطة سياسية واحدة مع المرابطين والموحدين من بعدهم، لكن هذا لا ينفي الفروق الواضحة بينهما، مما كان له انعكاس أكيد على التركيبة الذهنية لكليهما، ولعل أبرز الفروق هو التمايز الحضاري بين الأندلسيين والمغاربة<sup>14</sup>، ولن أتناول هذا التمايز في عمومياته، بل في خصوصيته المرتبطة بموضوع الموت، وقد ذكر الباحث جملة من حيثياته دون أن يعطيها كبير اعتبار.

من بين تلك التمايزات الحضارية تطييب جسد الميت، بمعنى وضع الطيب على جسده، فقد حظيت عملية التطييب بعناية كبيرة من قبل المغاربة وبغناية أكبر من قبل الأندلسيين الذين استعملوا عطورا رفيعة فيه (ص. 57).

ولم يكن المأتم عند النساء الأندلسيات والمغربيات بالطقوس نفسها، فقد طغى عليها البداوة في المغرب، وظهرت جوانبها السلبية في المغرب دون الأندلس (ص. 88).

<sup>13</sup> - مثلا ناقش الباحث مدى سيادة اللون الأبيض كلون للحداد في الأندلس. محمد حقي، الموقف من الموت، ص. 85.

<sup>14</sup> - راجع في الموضوع على سبيل المثال لا الحصر، كتاب تحفة الناظر وغنية الذاكر في حفظ الشعائر وتغيير المنابر، لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن قاسم بن سعيد العقباني، تحقيق، علي الشنوفي، Institut Français de Damas, Bulletin d'études Orientales, Tome, XIX, Années, 1965-1966, Damas, 1967. يقول : « وإن البوقات المذكورة في الأعراس بوقات تميل النفوس إليها كما هي في الأندلس وأما بوقات بلادنا فإنها مفزعة ولذا ينفر منها الحمار لهذا جرى عليها العمل إنها تستعمل في المساجد والجوامع في شهر رمضان ليستيقظ النائم للسحور... ».

كما أن المغرب كان متأخرا عن الأندلس بمراحل كثيرة على مستوى النظم الإدارية. ج.ف.ب. هوبكنز، النظم الإسلامية في المغرب في القرون الوسطى، نقله عن الإنجليزية، أمين توفيق الطيبي، شركة النشر والتوزيع المدارس، الدار البيضاء، ط2، 1999 م، ص. 177.

وفي موضوع العزاء، نشأ أدب التعزية من نثر وشعر في الأندلس دون المغرب (95-96).

أما بناء القبور، فقد كشفت الأبحاث الأثرية أن القبر الأندلسي تميز بترصيف وبناء جانبيه باللبن (ص. 115). واكتشفت في مرسية مجموعة من التوابيت الفاخرة المصنوعة من الرخام تعود إلى القرن الخامس هـ (ص. 116). وانتشرت الروضات في المقابر الأندلسية، واستعملت في ذلك مواد فاخرة (ص. 128).

أما شواهد القبور، فالملاحظ أن الأندلس اختصت بتراثها الغني والكبير بالشواهد على عكس المغرب (ص. 118). إلى غير ذلك من الأمثلة التي يصعب حصرها، في هذا الحيز الضيق.

بناء على ما سبق، يصعب الحديث عن ذهنية واحدة موحدة للمغاربة والأندلسيين في مجابهة الموت، حتى إن المصادر المؤلفة عن الموت وجدت في الأندلس دون المغرب، ونقصد بذلك كتابي "العاقبة والموت والنشر والحشر والجنة والنار" لأبي محمد عبد الحق الأزدي الإشبيلي (ت. 581 هـ / 1185 م)، و"التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة" لأبي عبد الله محمد القرطبي (ت. 671 هـ / 1272 م)، وبالتالي فإن صور الموت قد تختلف من مجتمع لآخر.

لم يكن الفرق الحضاري بين المجتمعين المغربي والأندلسي هو الأساس في التنبيه على صعوبة الجمع بينهما في موضوع الموت، بل لأن هاته المسألة دفعت الباحث، أحيانا، إلى محاولة تمرير واقع أندلسي على المغرب والعكس صحيح أيضا، أو تعميم فكرة ما على المجتمعين رغم غياب نصوص تعضدها (ص. 57، 88). ويحيلنا هذا الأمر على ملاحظة أساسية في هذا الكتاب وهي غلبة المجال الأندلسي على المغربي في الكثير من محطاته، بمعنى غلبة التوثيق الأندلسي على نظيره المغربي. (ص. 8-14، 23-24، 61، 69-70). ولا يساعد ضعف التوازن بين المجالين الأندلسي والمغربي على الفهم الجيد لبعض القضايا المعالجة (ص. 31).

## قضية التحقيب

تعد قضية التحقيب من أهم القضايا المرتبطة بالبحث التاريخي، وقد أولاها الباحث عناية خاصة في أغلب أقسام وفصول وعناصر مؤلفه إلى درجة تمييز كل موضوع من مواضيع الموت بتحقيب معين. فكيف حضرت هذه القضية في الكتاب؟ وما هي الملاحظات الممكنة عنها؟

قبل الخوض في هذه القضية، لا بد من الانتباه إلى أن الزمن في الإسلام دائري صرف، فيه عود على بدء أبدي، وتداول بين الحياة والموت، بل إنه زمن خطي يمكن أن نرسم إليه محور زمني يبدأ بولادة الإنسان ويمتد إلى ما بعد موته لأن موته دخول في زمن آخر لعله

أهم من الأول. وإن كان استقرار الإنسان بأحد فضائي الآخرة، الجنة أو النار، هو آخر المطاف بعد سلسلة من الأحداث الأخروية<sup>15</sup>.

لا بأس من التذكير أيضا بالإطار الزمني الذي اختاره الباحث لمعالجة موضوع الموت والممتد عبر سبعة قرون من أواخر القرن الثاني الهجري/ 8 م إلى القرن التاسع الهجري/ 15 م. أي تقريبا ما يصطلح عليه بالعصر الوسيط برمته.

يمكن التمييز في تحقيب الباحث لقضايا الموت بين مستويات عدة؛ التأريخ لظاهرة ما عند ظهورها لأول مرة، تزايد ظاهرة ما خلال قرن من القرون، توقف ظاهرة ما في قرن معين، وتحقيب مقسم من قرن إلى آخر، ثم تحقيب دون تحديد واضح، وهنا أسهمت اللغة المكتوب بها أحيانا في هذا الاتجاه.

يلاحظ أن أغلب ظواهر الموت ارتبطت بالقرون الرابع والخامس والسادس للهجرة، مع غلبة للقرن الرابع. والتأريخ لبداية العديد من ظواهر الموت بالقرن الأخير، مرتبط أكثر، من وجهة نظري، بالمادة المصدرية التي وصلتنا أكثر مما هو تأريخ فعلي لظاهرة من تلك الظواهر. لذا، يحتاج هذا النوع من التحقيب إلى تنسيب وإعادة نظر. ويمكن سحب هذه الملاحظة، المبنية على المعطى الجيولوجرافي، على التأريخ لظواهر الموت المنتهية أو المختفية في قرن من القرون. أما مستوى التحقيب الخاص بزيادة ظواهر الموت خلال قرن من القرون، فلكل حالة تفسيرها الخاص. ويبقى تحقيب الباحث لمواضيع أخرى مرتبطة بالموت مبهما وغير دقيق كمضامين الشواهد، والمقابر الأميرية، والدفن في المنازل.

## قضية المقدس

القضية الثالثة التي تسترعي الانتباه في الكتاب، هي ارتباط العديد من محطات الموت بالمقدس، هذا المقدس الذي لا يُلمس إلا من خلال نتائجه ومؤثراته<sup>16</sup>.

وقف الباحث عند العديد من المحطات التي يرتبط فيها الموت بالمقدس، كوصايا الأموات المرتبطة بتجهيزهم أو الصلاة عليهم أو مكان دفنهم، وطقوس أهل الميت التي مارسوها من تلاوة للقرآن، وإنشاد للأذكار، وأدعية، وصلوات... كمحاولات للتشفع للميت ليسهل مروره إلى العالم الآخر، ويضمن النجاة من العذاب والفوز بالجنة، واعتقاد الأحياء أن الأموات يسعدون بذكر أوليائهم وأهلهم لهم.

<sup>15</sup> - رجاء بن سلامة، الموت وطقوسه، ص. 126.

<sup>16</sup> - Joseph CHELHOD, *Les structures du sacré chez les Arabes*, G.-P Maisonneuve et Larose, Paris, 1964.

## قضية العلماء والواقع

تتمثل القضية الرابعة في موقف العلماء من الطقوس والمظاهر المترتبة عن حدث الموت، وتكاد تحضر هذه القضية في كل الكتاب وخاصة في قسميه الثاني والثالث. ويمكن التمييز في مواقف العلماء من طقوس الموت ومظاهره بين موقف معارض، وتقبل حذر، وموقف متساهل، وتجويز، ولم يغيب تضارب آراء الفقهاء في قضية ما من قضايا الموت.

والملاحظ أن معارضة الفقهاء للعديد من طقوس الموت لم تلق كبير استجابة لأرائهم، فالتيار كان أقوى من إرادتهم الضعيفة فتجاوزهم، وما استمرار معارضة الفقهاء واستنكارهم لتلك الطقوس طيلة العصر الوسيط سوى دليل على تواصلها في الواقع، وعجز على الحد منها. لذلك، سائر بعض الفقهاء التطور الذي عرفه الميدان الجنائزي، وصاروا يبحثون عن تيرير مجموعة من التصرفات بوضع بعض الشروط البسيطة لإضفاء المشروعية عليها (ص. 109).

وتبقى مسألة التباعد بين المجتمع والشرع في حاجة إلى مزيد من الحفر انطلاقاً من كتب البدع، وتوظيف كتب الحديث النبوي للوقوف على مدى تأثير الفكر الديني السني في المجتمعين المغربي والأندلسي في موضوع الموت.

## قضية التراتب الاجتماعي

تعد قضية الموت والتراتب الاجتماعي من بين القضايا البارزة في الكتاب، وتحضر ابتداء من قسمه الثاني. ويمكن تقسيمها إلى شقين، واحد ذو بعد مادي، وآخر ذو بعد رمزي. وقد اقترنت مظاهر تراتب الموت، لدى المغاربة والأندلسيين، بالديني (الإحساس الديني العميق، والرغبة في النجاة) والديني (حب الدنيا والظهور والمباهاة) على السواء.

رصد الباحث عدة مظاهر للتراتب المادي للموت منها ما يخص التكفين، وإعداد نعوش، واختيار غطائها...، وإجمالاً اختلفت نفقات تجهيز الميت بين الأغنياء والفقراء بشكل واضح. كما كان مأتم الأغنياء يدوم سبعة أيام خاصة لدى الأندلسيين، وتقام خلال هذه الأيام الولائم في بيت الميت، ويتباهى الناس في ذلك ويتفاخرون.

انتقلت مظاهر التراتب المادي من التكفين والطقوس المصاحبة للمأتم والجنائز إلى عملية الدفن بدءاً بإنزال الميت إلى قبره في توابيت خشبية، خاصة للميسورين. وشكلت المقابر المظهر المادي الأساس للموت داخل المدينة أو القرية المغربية والأندلسية، وفيها ظهر التمايز بشكل واضح بين الفقراء من جهة وأهل اليسار والأعيان والوجهاء من جهة أخرى. على أن الذي يجمع بين كل مظاهر التراتب المادي للموت في المغرب والأندلس هو المباهاة والمفاخرة، ولم تحد مظاهر التراتب الرمزي المرتبطة بالموت عن هذا التوجه.

## قضايا وأسئلة غائبة

لن أخوض في القضايا الغائبة في موضوع الموت عامة، وإنما في قضايا كان بإمكان المادة المصدرية التي اطلع عليها الباحث أن تسعفه في تناولها، وسأقسم هذه القضايا إلى قسمين : قضايا غائبة في تصميم الكتاب، وأخرى غير مفكر فيها.

ليس الغرض من الخوض في القضايا الغائبة التتقيص من العمل، بل فتح آفاق جديدة في موضوع الموت. ولا تعدو إثارتها أن تكون ضريبة شجاعة الباحث اقتحام موضوع بكر وغير مسبوق بالنسبة للمجال والحقبة المدروسين.

يأتي في مقدمة **القضايا الغائبة في التصميم**، غياب الحديث عن مصطلحات الموت في المصادر المغربية والأندلسية الوسيطية، وكان من شأن هذه المصطلحات أن تمدنا بتصورات عن الموت، تكفي الإشارة إلى عبارة "استأثر الله به" الموجودة في بعض كتب المناقب<sup>17</sup>، وهي عبارة بليغة ذات دلالات بعيدة.

يضاف إلى هذا ارتباط كل صور الموت المثارة في الكتاب بالراشدين والرجال منهم خاصة. فهل كانت صور الموت عند الراشدين هي نفسها عند الأطفال والمراهقين ؟

تطرق الباحث في الفصل الثاني لعنصر التنبؤ بساعة الرحيل، لكن غاب الحديث عن مسألة مهمة ذات انعكاس واضح على الذهنيات وهي أثر هذا التنبؤ على سلوك الإنسان. فهل ظل المتنبئ بموته يسلك نفس السلوك في حياته ؟ أم كان يعمد إلى تغييره بناء على تنبئه ؟

بصلة مع التنبؤ بالموت، المقترن غالبا بعالم الولاية، لم يحضر الحديث، بصورة كافية، عن الأبعاد الأخرى لموت الولي من كرامات الاحتضار، وكرامات ما قبل الدفن، وكرامات الدفن وما بعده، وزيارة قبور الصلحاء، والاستشفاء بتراب قبر الولي، وكل هذه الأبعاد تسعف النصوص المنقبية في معالجتها.

تناول الباحث في العنصر الثالث من الفصل الرابع ما أسماه بالميتة الحسنة، وما دام هناك حديث عن هذا النوع من الميتة، يبدو بديهيا حضور حديث عن الموت السلبي لدى المغاربة والأندلسيين. والمقصود به الموت الفردي، الذي لم تكن المجموعة الدينية تقبله لأسباب عدة في مقدمتها عدم استجابة الأفراد الذين يلحقهم الموت لعقائد المجموعة، بما يفضي إلى حرمانهم من الجنة. فلكل مظهر من مظاهر الموت الإيجابي أو الحسن تقريبا ما يقابله من مظاهر الموت السلبي، وبهمنا في هذا الصدد لقاء الله مثلا الذي يقابله الانتحار<sup>18</sup> أو ما

<sup>17</sup> - أحمد بن عبد الرحمان بن عائش الحافي، تحفة الزائر بمناقب الحاج أحمد بن عاشر، تحقيق وتقديم، مصطفى بوشعراء، منشورات الخزنة العلمية الصيحية بسلا، مطابع سلا، الطبعة الأولى، 1409 هـ/ 1988 م، ص. 43.

أحمد بن أبي القاسم بن محمد التادلي الصومعي، كتاب المعزى في مناقب الشيخ أبي يعزى، تحقيق، علي الجاوي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ابن زهر، أكادير، 1996 م، ص. 247.

<sup>18</sup> - يراجع عمل الباحث عبد الإله بللمليح : "الانتحار في تاريخ الغرب الإسلامي الوسيط"، دفاتر تاريخية : مجلة سنوية تعنى بشؤون التراث والتاريخ والفكر، العدد الأول، خريف 2010. (ص. 17-24).



يعرف بقتل النفس حسب المصادر الوسيطية، لأنه استعجال للموت لا انتظار له، وإسلام إلى الله، وهو محرم في القرآن (الإسراء، آية 33. النساء، آية 29). وبالموازاة مع الانتحار، غابت حالات تمني الموت التي تقارب الانتحار، فكأن تمني الموت منتهر بالقوة لا بالفعل أو كأنه ينوي الانتحار فيكون من المنتحرين بمقتضى مبدأ الأعمال بالنيات<sup>19</sup>.

ينسحب الموقف السلبي من الانتحار أيضا على موت من فارق الجماعة، وهو موت الذي ينتصر لجهة تشق عصا الطاعة عن الإمام، وتفارق الجماعة، وينعت موت المشترك فيها بموت الجاهلية، لأنها قتال بلا قضية من وجهة نظر أهل السنة<sup>20</sup>.

تُمكّن الطقوس الجنائزية من الوقوف على أصناف أخرى من مظاهر الموت السلبي، وهم أولئك الذين لم تكن تقبلهم المجموعة المسلمة أو تتردد في ذلك وهما المرجوم في حد، والمنافق الذي يموت وعليه دين<sup>21</sup>.

أما أبرز علامة على الموت السلبي، إلى جانب الانتحار، فهي الموت على ملة غير الإسلام، حتى أن قبور المشركين لا حرمة لها، فللمسلمين حق نبشها<sup>22</sup>.

يدفعنا الحديث عن موت غير المسلمين إلى إثارة القضايا التي لم يتم التفكير فيها ذات الصلة بموضوع الموت، وأقصد صور الموت، وإعداد الموتى، والطقوس الجنائزية، والمدافن لدى اليهود والنصارى وعبود السودان في المغرب والأندلس خلال الحقبة المعالجة، فلم تتم الإشارة إلى هذا الموضوع لا من قريب ولا من بعيد، وكأنهم لم يشكلوا مكونا من مكونات المجتمعين على السواء. دون أن ننسى عادات وطقوس الموت التي جلبها العبيد معهم من بلاد السودان إلى المغرب والأندلس. وبناء على ما سبق، يستحسن تحويل عنوان الكتاب إلى: "الموقف من الموت عند المسلمين في المغرب والأندلس خلال العصر الوسيط".

وإذا كانت المكونات السابقة غابت كلية، فإن حضور المرأة كان باهتا اللهم فيما يتعلق بالعادات والطقوس المتبعة بعد الموت، في وقت نجد كتب البدع تلتصق أغلب بدع المجتمع بالمرأة، والبدع المصاحبة للموت كثيرة، يكفي التذكير هنا بمواقف العلماء المعارضة لكثير من طقوس الموت.

ومن أبرز القضايا الغائبة، الحديث عن أسباب الموت (وفيات الأطفال، وفيات النسوة خلال الوضع، المجاعات والأوبئة، الحروب... إلخ)، والسببين الأخيرين يحيلان على قضية أكبر وهي الموت الجماعي، وما لهذا الموت من وقع وانعكاس كبيرين على ذهنية المجتمعين المغربي والأندلسي، لا سيما أن المجاعات والأوبئة ضربتا المجالين معا طيلة فترات العصر

---

رغم الصعوبات المصدرية التي أحاطت بهذا العمل، فقد وجد صاحبه ضالته في كتب التاريخ والفتوح والجغرافيا وقصص الحب والغرام وغيرها، ووقف فيه على طرق قتل النفس من ذبح وتردي وشنق وخنق وطعن وحز للبد وتناول السم... إلخ.

<sup>19</sup>- رجاء بن سلامة، الموت وطقوسه، ص. 108.

<sup>20</sup>- نفسه، ص. 109-110.

<sup>21</sup>- رجاء بن سلامة، الموت وطقوسه، ص. 102-115.

<sup>22</sup>- نفسه، ص. 110-111.

الوسيط، وحصدا أعداد مهمة من ساكنة المجالين، ويبقى الطاعون الأسود منتصف القرن الثامن هـ/ منتصف القرن 14 م أبرز كارثة طبيعية همت المغرب والأندلس على السواء. ولم تكن الحرب أقل وطأة في هذا الباب.

وما دام الموضوع له ارتباط بتاريخ الذهنيات وبالمتخيل، فقد غاب الحديث عن علاقة الموت بالحلم - الرؤيا، وتعد كتب المناقب منجما مهما في هذا الموضوع.

غاب أيضا الحديث عن قلق الموت المرتبط ببعض المهن (العاملون في الجنازات، أفراد الجيش... إلخ)، وبالحالة الصحية، وبعمر الإنسان، ناهيك عن تبعات الموت من قبيل النزاع على الإرث، وتشرذم عائلات...

## تساؤلات

- أطرح في الأخير جملة من التساؤلات التي راودتني وأنا أقرأ كتاب الباحث محمد حقي :
- إلى أي حد كانت الأحاديث النبوية عن الموت وعذاب القبر وفتنته منتشرة بين مغاربة وأندلسيي العصر الوسيط؟ وكيف أسهمت في تشكيل ذهنيتهم؟
  - كيف حضرت فكرة الشهادة عند المغربي والأندلسي وهو الذي واجه طيلة العصر الوسيط عدوه النصراني في الأندلس والمغرب معا؟
  - هل راجت فكرة الخلود في الذهنية المغربية والأندلسية؟ مرد هذا السؤال أن الذات تعلم أنها مانتة لا محالة ولكنها لا تستطيع تصور فنائها وقد تنكره، لا لأنه مرير مأساوي فحسب، بل لأمر آخر انفرد فرويد بذكره عندما كتب: « في لا شعور كل واحد منا إقرار بخلوده ». فالإنسان، سواء كان مؤمنا بالبعث أم غير مؤمن به يقر في أعماق نفسه بخلوده. ومع ذلك فإن الشعور اللاشعوري بالخلود لا يلغي الخوف والقلق من الموت<sup>23</sup>.
  - هل كان لانتشار مذاهب أخرى غير السنية خاصة الخارجية (الصفيرية والإباضية) والشيعية (البلجية) أثره على طقوس الموت خاصة في المجال المغربي، ومن ثمة على تشكل ذهنية جزء من المجتمع؟ وهل كان للتجربة البورغوازية نصيب من سن طقوس خاصة بالموت؟
  - كيف كان المغاربة يتعاملون مع الموت في القرون الإسلامية الأولى قبل ان يتشربوا التعاليم الإسلامية؟ وما مدى استمرار طقوس الموت ما قبل أسلمة المجالين المغربي والأندلسي بعد مرحلة أسلمتهما؟

<sup>23</sup>- رجاء بن سلامة، الموت وطقوسه، ص. 13.

- ما هو موقف المغاربة والأندلسيين من موت ذويهم خارج مجالهم وخاصة في الديار المقدسة؟ ألم يعتبر ذلك من علامات الميتة الحسنة؟
- هل كان من شأن اطلاع الباحث على كتب ذات طبيعة أدبية أن يعكس لنا صوراً أخرى للموت المرتبط بوفيات العشاق في المجال والحقبة المدروسين؟
- هل تم الانتباه في كتب الرحلات لنصوص تمكن من عقد مقارنات بين الموت في المجالين المغربي والأندلسي ومجالات إسلامية أخرى، انطلاقاً من المقارنات التي كان يعقدها الرحالة المغاربة والأندلسيون للعديد من قضايا الموت بين بلدانهم وبين ما كانوا يشاهدونه في بلدان أخرى؟

## خاتمة

تلك إذن قضايا ارتأينا إثارتها، وأسئلة آثرنا طرحها ونحن نقرأ كتاباً ممتعاً للباحث محمد حقي لعلها تفتح نقاشاً مع المؤلف والقراء، فقارئ الكتاب لا يمكن إلا أن يخرج باستفادة جمة في موضوع الموت في المغرب والأندلس خلال العصر الوسيط على أكثر من صعيد، ويقف فيه على ضوابط البحث العلمي ومحدداته، رغم أن الباحث مقتنع بأن ما قدمه لا يدعو أن يكون « بداية لتراكم معرفي » في الموضوع (ص. 3).

محمد ياسر الهلالي